والّذين يجادلون في دين الله تعالى من بعد ما استجاب النّاس لنداء محمّد بن عبد الله -صلّى الله عليه وسلّم- ودخلوا في دين الله تعالى أفواجاً ويجتهدون في الصّدّ عن سبيل الله تعالى وحمل المسلمين على الارتداد عن دين الله تعالى فإن حجتهم باطلةٌ عند ربهم عزّ وجلّ. وعليهم غضبٌ من الله تعالى، ولهم عذابٌ شديدٌ في الآخرة. ويستوي في هذا العقاب كلّ من كفر وصدّ عن سبيل الله تعالى من أهل الكتاب وسواهم.

ويصرّ كفّار مكّة ومن شاكلهم على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى، وتظلّ رحمة الله تعالى الواسعة تلاحقهم كي يعودوا إلى جادّة الصّواب، ويتداركوا الأمر قبل فوات الأوان، ويعبدوا الله تعالى وحده دون سواه.

(٣)

"الله تعالى الّذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان ويرزق عباده المؤمنين يوم القيامة ويعاقب الكافرين هو المستحقّ أن يُعْبَدَ وَحْدَه"

الآيات (١٧-٢٨)

الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب العزيز آخر الكتب السّماويّة وأشرفها بالحقّ، وأنزل العدل ليقوم النّاس بالقسط. وما يدريك يا محمّد لعلّ قيام السّاعة قريب، فعلى الجميع الاستعداد لها بالإيمان وعمل الصّالحات. والمعروف أنّ كلّ آتٍ قريب، ومن مات قامت قيامته. يستعجل ويستهزئ بالساعة الّذين لا يؤمنون بها ولا يعتقدون قيامها. والّذين آمنوا خائفون وجلون منها، ويعلمون أنها الحق، ويستعدّون لها بعمل الصّالحات. ألا إنّ

الّذين يمارون ويجادلون في السّاعة ولا يؤمنون ولا يستعدّون لها لفي ضلالٍ بعيد، وهلاكٍ أكيد.

والله تعالى الرّؤوف الرحيم لطيف بعباده أجمعين، مؤمنين وكافرين، طائعين وعاصين، يرزقهم ولا يترك واحداً منهم، ويوسّع الرزق على من يشاء اختباراً، وليس ذلك دائماً دليلاً على كرامة هؤلاء على الله تعالى.

ويضيّق الرّزق على من يشاء ابتلاءً. وليس ذلك دليلاً على هوان هؤلاء على الله تعالى. والشّكور والصّبور بفضل الله تعالى في الجنّة. وعلى كلّ مؤمنٍ أن يريد بعمله الصّالح وجه ربّه الأعلى كي يتفضّل الحقّ جلّ وعلا بقبول تلك الأعمال الصالحة، لتحقّق الشّرطين اللازمين فيها، وهما صلاح العمل وصلاح النّيّة. إن من كان يريد بعمله الصّالح ثواب الله تعالى في الآخرة يزيد الله تعالى في ثواب عمله. ومن كان يريد الثّواب في الدّنيا من جاهٍ وثناءٍ حسنٍ وحُسْن أحدوثةٍ وما إلى ذلك يؤتيه الله تعالى ثوابه وما كتب له في هذه الحياة الدّنيا وليس له من ثواب الآخرة حظّ ولا نصيب.

ويظلّ المشركون، وبخاصّةٍ كفّار مكّة، يصرّون على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى. فهل لهؤلاء المشركين شركاء لله تعالى في العبادة شرعوا لهم من الدّين وأبدعوا ما لم يأذن الله تعالى به! إن لله تعالى وحده دون سواه الخلقَ والأمر. ولولا كلمةُ سبقت من ربّك بأنّ الفصل بين الخلائق يوم القيامة لقضى الله تعالى بينهم في هذه الحياة الدّنيا ونصر المؤمنين على الكافرين. وإن المشركين لهم يوم القيامة عذابٌ أليم.

ويوم القيامة ترى المشركين الّذين كانوا يستهزئون به وتجدهم خائفين وجلين ممّا كسبوا من السّيّئات الّتي يستحقّون عليها العقاب. والعقاب واقع بهم. أمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فهم في روضات الجنّات وخضرة بساتينها ينعمون.لهم مايشاؤون عند ربّهم عزّ وجلّ ممّا تشتهيه أنفسهم وتلذّه أعينهم. ذلك هو الفضل الكبير حقًّا،

وذلك هو النّعيم المقيم الّذي يبشر الله تعالى به في الدّنيا عباده الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات. وبذلك يكون المؤمنون مطمئنّين يوم القيامة، وقد كانوا في الحياة الدّنيا مشفقين منه. ويكون الكافرون مشفقين يوم القيامة، وقد كانوا في الحياة الدّنيا مطمئنّين إلى عدم مجيئه. وبشأن مشركي قومك الّذين لا يكفّون عن إيذائك يا محمّد قل لهم: أنا لا أسألكم أجراً على دعوتي لكم إلى دين الإسلام لكن أسألكم إن أصررتم على عدم قبول دعوتي أن ترعوا قرابتي منكم ونسبـــي فيكم، فإنّ بيني وبين كلّ بطون قريش دماً ونسبا. وإنّ من يفعل الحسنات يضاعف الله تعالى ثوابها. إنّ الله تعالى غفور لكلّ الذّنوب، بما في ذلك الشّرك لمن تاب وأناب قبل فوات الأوان، شكور لمن أمن وعمل صالحاً.

ويظل كفّار مكّة على شركهم وكذبهم. أم يقول كفّار مكّة إنّ محمّداً قد افترى على الله تعالى كذباً بادعائه أنّ القرآن كلام ربّ العالمين. إنّك يا محمّد الصّادق الأمين. ولو فُرِض أنّك تقوّلت علينا بعض الأقاويل فإن شاء الله تعالى طبع على قلبك وسلبك نعمة ما أوحى إليك وأنساك القرآن الكريم. ولكن القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، والله تعالى يمحو الباطل ويحقّ الحق بكلماته التّامّات الطّيّبات. إنه عزّ وجلّ عليمٌ بذات الصّدور ودخائل النفوس، ويعلم الصّادق فيؤيّده، والكاذب فيخذله. وإنّك يا محمّد لمن المرسلين.

ويظلّ باب التّوبة النّصوح مفتوحاً للجميع. إنّ الله تعالى هو الّذي يقبل التّوبة من عباده، ويعفو عن السّيئات، ويعلم ما تفعلون أيّها النّاس. فبادروا أيّها المشركون إلى التّوحيد، وأيّها المذنبون إلى الاستغفار.

ويظلّ النّاس، بعلم الله تعالى وبإذنه، فريقين: المؤمنون الّذين يعملون الصّالحات يستجيبون لنداء ربّهم فيثيبهم ويزيدهم من فضله عزّ وجلّ. والكافرون لا يستجيبون، بل يستمرّون في غيّهم وضلالهم، فلهم يوم القيامة عذابٌ شديد، وهوانٌ أكيد.

والله سبحانه وتعالى الّذي يرزق عباده، لو بسط له الرّزق لبغوا في الأرض وتعدّوا حدود الله تعالى. ولكنّه جلّ وعلا يترّل من الرّزق بقَدَرٍ على من يشاء، ويبسط الرّزق لمن يشاء، اختبارا. إنه جلّ وعلا خبيرٌ ببواطن عباده بصير بظواهرهم. ومن الرّزق الّذي يترّله الله تعالى بقَدَر وبكّميّاتٍ مقّدرة مضبوطة الغيث الّذي يترّله الله تعالى من بعد ما قنط العباد وكادوا ييأسون من رحمة الله تعالى. إن الله تعالى يترّل الغيث وينشر رحمته بالماء الّذي جعل عزّ وجلّ منه كلّ شيءٍ حيّ. والله تعالى هو المتولّي مصلحة عباده المحمود في كلّ حال.

ولا يخفى ذلك دور ثنائيّة المعنى في القول: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

(٤)

"مِنْ آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته خَلْقُ السّموات والأرض والسّفن الّتي تجري في البحر، وابتغوا أيّها المؤمنون ما عند الله تعالى واتصفوا بمجموعةٍ من النّعوت"

(٢٩-٤٣)

رحمة الله تعالى الّتي وَسِعَتْ كلّ شيء تلاحق المصرّين على كفرهم وعنادهم وإنكارهم للبعث من أجل حملهم على الإيمان وعمل الصّالحات، بل وبلوغ أعلى

الدّرجات. ها هو ذا السّياق يلفت الانتباه إلى آيات الله تعالى في السّماء والأرض والبرّ والبحر. وها هي ذي مجموعة من النّعوت الّتي يتحلّى بها المؤمنون مِنْ آيات الله تعالى الدّالة على قدرته ومنها البعث بعد الموت خَلْقُ الله تعالى السّموات والأرض وما نَشَرَ الله تعالى فيهما من دابّةٍ تدبّ في البّر والبحر وجوّ السّماء.

وهو جلّ وعلا على جمعهم يوم القيامة إذا يشاء قدير، للحساب والجزاء وما أصابكم أيّها النّاس من مصيبةٍ في أنفسكم أو أهليكم أو أموالكم فبسبب ما كسبت أيديكم من ذنوب واجترحت من آثام. ويعفو الله تعالى عن كثيرٍ من الذنوب لا يؤاخذ عليها، ولو آخذ ما ترك على الأرض من دابّةٍ تدبّ ولا عينٍ تَطْرِف. وما أنتم بمعجزي الله تعالى ولا فائتيه في الأرض أيّها النّاس عموما يا كفّار مكّة خصوصاً، وما لكم من دون الله تعالى وليّ يتولّى شؤونكم ويرعى مصالحكم، ولا نصير ينصركم بصرف العذاب عنكم أو تخفيفه.

ومن آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته والّتي يلزم الشكر له عزّ وجلّ عليها السّفن الّتي تجري في البحر والّتي تشبه الجبال ضخامةً وفخامة. إنّ السّفينة الواحدة قد تحمل من الأثقال ما يزن الجبل، وهي تجري في الماء بإرادة الله تعالى، ولا تشعر بِثِقَلِ حِمْلها ولا يشعر الماء بثقلها. وهذا الماء ذاته بإرادة الله تعالى لا يستطيع أن يحتفظ على ظهره بأصغر حصاة، بل ينبغي لها أن تغوص في أعماقه وتستقرّ في قاعه. والله سبحانه إن يشأ يسكن الرّيح الّتي تسيّر السّفن فيظللن وقوفا على ظهره وتتعطّل المنافع . إنّ في ذلك كلّه لآيات دالاّت على قدرة الله تعالى المطلقة، ومنها البعث بعد الموت، لكلّ إنسان مؤمنٍ شديد الصّبر على البلاء والطّاعات عن المعاصي، شديد الشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه. والصّبور والشّكور ابتغاء وجه الله تعالى في الجنّة.

وفى العصور اللاّحقة تحلّ الطّاقة محلّ الرّيح. وإنّ تسخير الله تعالى الطّاقة من جنس تسخير الرّيح. وإنّ نفاذ الطّاقة من جنس سكون الرّيح. ومعروف أنّ الهواء ضروريٌّ للمحرّكات الآلية.

والله سبحانه إن يشأ يغرق السّفن بما فيها ومن عليها أو يعذّب الرّكاب دون الغرق، يوبق السّفن بالرّيح العاتية، ويزعجها بالعواصف الهوج، ويطوّح بها كلّ وجهةٍ بالأمواج العالية، ويلتفّ بها بالدّوّامات السّريعة العميقة، وهكذا. ولا أستطيع أن أنسى ما أخبرني به أحد العاملين في إحدى ناقلات البترول العملاقة عابرات المحيطات بأنّ الرّياح حينما تكون عاتية، والأمواج عالية، لا نملك الأيّام ذوات العدد، إلاّ أن نسير مع اتّجاه الرّيح وإن كان ذلك عكس واجهتنا حتّى تهدأ العواصف، وربّما بحثنا عن جبلٍ نستتر خلفه، ونرسي مراسينا في سفحه.

والله سبحانه وتعالى يعفو عن كثيرٍ من الذّنوب فلا يؤاخذ عليها، وقد يؤاخذ عليها دون الغرق.

والله سبحانه يغرق الجاحدين لينتقم منهم ويعلم الّذين يجادلون في آياتنا بالباطل أنّهم مالهم من مهربٍ من عذاب الله تعالى.

وأنتم أيّها النّاس، ما آتاكم الله تعالى من شيءٍ من نعيمٍ فمتاعٌ زائلٌ في هذه الدنيا الفانية. وما عند الله تعالى خيرٌ وأفضل، أبقى وأدوم، من كلّ نعيمٍ للمؤمنين الّذين تتحقّق فيهم مجموعة من النعوت. إنّهم الّذين آمنوا بالله تعالى رباًّ وبالإسلام ديناً، وبمحمّد – صلى الله عليه وسلّم – نبيا ورسولاً، وبالقرآن الكريم منهجاً، والّذين هم على ربّهم جلّ وعلا مربّيهم بنعمه يتوكّلون. وهكذا تكون عقيدة المؤمنين سليمة.

ومن نعوت المؤمنين أنّهم يجتنبون كبائر الإثم ويتحاشون ما فحش قبحه من الذّنوب. وهم إذا ما أثار غَضَبَهُمْ بعضُ السّفهاء يتركون مؤاخذته على ذنبه ويقولون ويفعلون ما تسلم به أعراضهم. وهكذا تكون أخلاق المؤمنين عظيمة، وسلوكهم مستقيماً، ومعاملتهم للآخرين نبيلة، امتثالاً للإرشادات السّماويّة الكريمة.

وهؤلاء المؤمنون استجابوا دعاء ربّهم بتوحيده وإفراده بالعبادة. ولهذه الاستجابة شواهد شتّى، منها إقام الصّلاة بكامل شروطها، ومعروف أنّ الصّلاة أعظم مظاهر العبادة، وهي تتّجه إلى الله تعالى مباشرة، ومنها أنّ أمرهم فيما يستجدّ من أحوالٍ شورى بينهم، فليس ثمّة انفرادٌ بالرّأي ولا استبداد، امتثالاً لأمر الله تعالى. ومعروفٌ أن الشّورى نوعٌ من المعاملة لعباد الله تعالى. ومنها إنفاقهم ممّا رزقهم الله تعالى في هيئة الزّكاة والصّدقة والإنفاق على من تلزمهم نفقته. وهم في كلّ ذلك يطبّقون أحكام الله تعالى. إنّهم بشأن الزّكاة المفروضة يؤدّون حق الله تعالى للفئات الثّمان الّتي تستحقّ الزّكاة. وهم بشأن الصّدقة ينفقون بإيمانهم بحيث لا تعلم شمائلهم. وهم بشأن النفقة لا يُسْرفون ولا يَقْتُرون ولكن يختارون الطّريق الوسط الذي أمرهم به الشّارع الحكيم. ومعروفٌ أنّ الزّكاة ركنٌ وأنّها عبادةٌ لله تعالى تمرّ بالإنسان، وهي الرّكن الثّالث من أركان الإسلام. وبذلك يجمع السّياق بين الصّلاة والزّكاة جرياً على عادة القرآن الكريم، ويأتي الحثّ على الشّورى بين الصّلاة والزّكاة دليلاً على منزلة الشّورى في الإسلام. وإن نعت المؤمنين بأنّهم ينفقون ممّا رزقهم الله تعالى ينبّه إلى أنّ النّفقة سواء كانت ركناً أو واجباً أو نفلاً ينبغي أن تكون مال حلال.

وهؤلاء المؤمنون الهيّنون اللّيّنون الّذين يخفضون أجنحتهم لإخوانهم المؤمنين بأمر الله تعالى لهم. هم بأمر الله تعالى إذا أصابهم البغي ينتصرون لأنفسهم، لأنّهم الكرام الأعزّة بالإسلام، أسود الشّرى، وأبطال المعارك. وهم في انتصارهم لأنفسهم ممّن تجاوز كلّ

الحدود المعقولة في الظّلم إلى حدّ البغي، هم لا يتعدّون حدود الله تعالى. إنّهم يدفعون السّيّئة بمثلها فقط ولا يبغون.

ومعروفٌ أنّ النّفوس البشريّة تتفاوت في موقفها ممّن ظلمها وبغى عليها. إنّ من النّاس من يدفع السّيّئة بالحسنة ابتغاء وجه الله تعالى. وهذا فضل. وقد تحدّث السّياق قَبْلُ عن هذا الفريق من النّاس. وإنّ من النّاس من يرتاح إذا أخذ حقّه ممّن ظلمه وبغى عليه، وهذا العدل. وإنّ الشّارع الحكيم يعطي هذا الفريق من النّاس هذا الحقّ ويرشده إلى الطّريق القويم بأن يكون جزاء السّيئة سيّئةً مثلها في الحجم. ولا يخفى أنّ هذه المرتبة تلي المرتبة السّابقة رِفْعَة، ويؤكّد هذا المعنى الازدواج أو المشاكلة ومراعاة النظير باستعمال لفظ السّيّئة دليلاً على الجزاء ابتغاء خفّة الكلام. والدّليل على المنزلة الأرفع للفضل هنا حثّ أصحاب النّفوس الحريصة على العدل أن تقصد الفضل. إنّ من عفا عن المذنب وأصلح ما بينه وبينه فإن أجره على الله تعالى. والله تعالى لايحبّ الظّالمين الّذين يظلمون النّاس ابتداءً، والّذين يظلمون النّاس بأن يتجاوزوا في أخذ حقهم العدل إلى الظّلم، والّذين يظلمون النّاس الّذين أخذوا حقّهم بالعدل وأنصفوا، بأن يطَغْوا عليهم عقاباً لهم على أخذ حقهم بالعدل ممّن ظلمهم ويبغوا عليهم امتثالاً للشيطان الرّجيم والنّفس الأمارة بالسّوء.

وبقصد معالجة السّياق أدوات هؤلاء الطّغاة البغاة يقرّر أنّ الّذين لأنفسهم ممّن ظلموهم ويأخذون حقّهم المشروع ليس عليهم أيّ مؤاخذة. إنّ المؤاخذة على الّذين يظلمون النّاس ويبغون في الأرض بغير الحقّ ويتجاوزون الحدود التي عيّنها الشّارع الحكيم. إنّ أولئك الظّالمين ابتداءً، والظّالمين أثناء، وذلك بأن يأخذوا ممّن ظلمهم أكثر من حقّهم، والظّالمين انتهاءً الباغين على الّذين أخذوا حقهم من الظّالمين عقاباً لهم على تطبيق العدل الّذي أنزله الله تعالى وأمر به، أولئك لهم عذابٌ أليم.

ولا يترك الشّارع الحكيم المظلوم الّذي بَغَى عليه الطّغاة؛ لأنّه أصرّ على تطبيق العدل دون تنبيه إلى ثواب الله تعالى العظيم حينما يصبر ويترك المؤاخذة على الذنب ويعفو ويصفح. إنّ هذا المستوى الرّفيع من الفضل ممّا عزّم الله تعالى عله من الأمور وأمر، أغرى به ونصح، سبحانه، جلّ شأنه، ما أعظم فضله، وأكبر غفرانه.

وهكذا يتبين أنّ القرآن الكريم الّذي يهدي للطّريقة التي هي أقوم يريد من النّاس أجمعين أن يكونوا مؤمنين متحلّين بأجمل نعوت أهل الإيمان. وقد أصرّ كفّار مكّة ومن شاكلهم على الكفر وإنكار البعث.

(٥)

"عذاب المشركين يوم القيامة أليم، فعلى النّاس الاستجابة لله تعالى خالق كلّ شيءٍ ومنزل القرآن الكريم الّذي يهدي إلى صراط الله تعالى المستقيم"

(٤٤-٥٣)

أصرّ كفّار مكة على شركهم وإنكارهم يوم القيامة. والله تعالى يزيد الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى ضلالاً إلى ضلالهم وعمى بصيرةٍ إلى عماهم. وإنّ الّذي يضلله الله تعالى ما له من وليّ بعده جلّ وعلا يتولّى شؤونه ويرعى مصالحه. وتري يا محمّد المشركين لمّا رأوا العذاب يوم القيامة يقولون على سبيل التّمنّي : هل إلى مردّ للحياة الدّنيا من سبيلٍ كي نعمل به صالحاً غير الّذي كنا نعمل! وتراهم يا محمّد ويا أيّها المؤمن يُعْرَضون على

النّار خاشعين من الذّلّ، خاضعين من الهوان، ينظرون إلى النّار من طرفٍ خفيّ، ويسارقون النّظر إليها بباعث الخوف المبين، والأسى المكين.

وقال الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله - صلّى الله عليه وسلّم- إن الخاسرين على الحقيقة هم الذّين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بدخول نار الجحيم بدل جنّة النّعيم، الّتي دعاهم إليها الرّسول الكريم -صلّى الله عليه وسلّم- والقرآن العظيم كلام ربّ العالمين. إلا إنّ المشركين في عذابٍ دائم بسبب ارتكاب الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الشرك. وما كان لهؤلاء المشركين من أولياء وأصدقاء ينصرونهم من دون الله تعالى بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه. وإن الّذي يضلله الله تعالى ما له من سبيلٍ إلى الهدى في الأولى. وإلى الجنّة في الآخرة.

وأنتم أيّها المشركون المصرون على إنكار البعث، استجيبوا لنداء ربّكم الّذي يدعوكم إلى جنّات النّعيم، وبادروا إلى الإيمان وعمل الصّالحات مِنْ قَبْل أن يأتي يومٌ لا مردّ له من الله تعالى الّذي قضي بمجيئه وحتمية وقوعه، وهو يوم القيامة، ما لكم من ملجأٍ تفرّون إليه يوم القيامة، وما لكم من قدرةٍ على إنكار ما فعلتموه، لأنّ سمعكم وأبصاركم وجلودكم وفروجكم سوف تشهد عليكم.

ويصرّ كفّار مكّة على الكفر والعناد والصّدّ عن سبيل الله تعالى. ويتحول الحديث إليه - صلّى الله عليه وسلّم - بقصد التّسلية له والتّسرية عنه عليه الصّلاة والسّلام. وأنت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، إن أعرضوا عنك، وهم قد أعرضوا فعلاً، فما أرسلناك عليهم حفيظاً ولا مسيطرا. ما عليك إلاّ البلاغ وقد فعلت ذلك. وإنّا إذا أذقنا رحمةً منّا جنس الإنسان الكافر الكفور للنّعم مثل كفّار مكّة، فَرِح بها فَرَح أَشَرٍ وبطر، وأشرك مع الله تعالى غيره في العبادة. وإن تُعيب هذا الجنس من النّاس سيّئة بسبب ما قدّمت أيديهم من ذنوب، واقترفت من خطايا، فإنّ الإنسان كفورٌ لنعم الله تعالى،

يؤوسٌ من رحمته عزّ وجلّ، قنوط من رَوْحه. إنّ هذا هو حال كفّار مكّة ومن شاكلهم، وإنّ رحمة الله تعالى الواسعة تظلّ تلاحقهم. وها هو ذا السّياق يتحوّل إلى الحديث في بعض آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة، ومنها البعث بعد الموت.

إنّ لله تعالى مِلْك السّموات والأرض وما فيهنّ ومن فيهنّ. وإلى هذا المعنى أومأت الآية الكريمة الرّابعة في السّورة الكريمة. والله تعالى يخلق ما يشاء ويريد. ويهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء ذكوراً، أو يخلطهم ذكوراً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولد له. إنّه عزّ وجلّ عليمٌ ، فلا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، قدير.

فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء. وإنّ ثنائيّة المعنى في التّذييل: { إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} معمّق لما تفيده الآيات الكريمات من علمٍ وقدرةٍ للحقّ جلّ العليم القدير. وهذه الثّنائيّة في البشر أو مأت إليها الآية الكريمة السّابقة الحاديةَ عشرة، الّتي تحدّثت عن أزواج البشر والأنعام، وعن السّموات والأرض. وقد فُهِم أنّ الثّنائيّة صفةٌ لازمة لكلّ المخلوقات من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجماد. وقد قرّرت تلك الآية الكريمة أنّه ليس ثمّة من واحدٍ أحدٍ سوى الله تعالى. وإنّ حديث السّورة في ختامها عن الزّوجين من البشر، الذّكر والأنثى، معمق لمعنى الوحدانيّة وقضيّة التّوحيد، الهدف الأسمى للقرآن الكريم، ومحور سورة الشّورى الكريمة.

وكما تحدّثت السّورة الكريمة في أوّلها عن القرآن الكريم وعن الوحي تحدّثت في ختامها. وهي تقرّر أنّ القرآن الكريم نزل في أسمي طرق الوحي، وأنه يهدي للّطريقة التي هي أقوم، وأنّ محمداً - صلّى الله عليه وسلّم - يهدي بالقرآن الكريم إلى صراط الله تعالى المستقيم، إلى دين الإسلام العظيم، فبادروا أيها النّاس إلى الإيمان وعمل الصّالحات كي تثابوا عليها يوم القيامة.

إنّه ما ينبغي لواحدٍ من البشر أن يكلّمه الله تعالى إلاّ وحياً مَناميّاً، أو إلهاماً في اليقظة، أو مِنْ وراء حجاب، كما جري لموسى - عليه السّلام - أو يرسلَ جلّ وعلا رسوله جبريل - عليه السّلام - فيوحي بإذنه جلّ وعلا ما يشاء. إنّه عزّ وجلّ عليّ قاهر فوق عباده، حكيم في كلّ شيء. ولا تخفى ثنائيّة المعنى في التذييل.

وكما أوحينا يا محمّد إلى النّبيّين السّابقين والمرسلين أوحينا إليك يا محمّد في أسمي طرق الوحي روحاً للنّفوس من أمرنا الّذي نأمرك ونخصّك به. ما كنت تدري يا محمّد ما الكتاب السّماويّ ولا الإيمان على التّفصيل. ولكن جعلنا القرآن الكريم نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، ونكتب هدي التّوفيق لمن اجتهدوا في الإقبال علينا وجاهدوا في سبيلنا. وإنّك يا محمّد تهدي بهذا الكتاب العزيز الّذي تبيّنه سنّتك المطهّرة وترشد إلى صراطٍ مستقيم، وطريقٍ قويم ودين الإسلام العظيم. صراط الله تعالى الّذي له ما في السّموات وما في الأرض، مِلْكاً وخلقاً وعبيدا. فبادروا أيّها النّاس إلى الاقتباس من مشكاة النّور الإلهي، عن طريق القرآن الكريم (الكتاب)، والسنة النبوية؛ كي تدخلوا بإذن الله تعالى وفضله جنّات النعيم. إنّكم إن لم تفعلوا ذلك فمصيركم النّار وبئس القرار وإنّ لكم أيّها النّاس حرّيّة الاختيار، بين الجنّة والنّار إنّ إلى الله تعالى المصير يوم القيامة، ووقتها يثاب المحسن ويعاقب المسيء.

التّفسير

(١)

"اللّه تعالى الّذي أنزل القرآن الكريم، وخلق السّموات والأرض وما فيها، وإليه المصير، هو يعبد وَحْدَه"

الآيات (١-١٢)

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾

تبدأ سورة الشّورى المكّيّة الكريمة بخمسة حروف مقطعة (حمٓ) (عٓسٓقٓ) وتُسمَّى بها السّورة الكريمة كذلك، فيقال سورة : حم عسق[1] وهي السّورة الكريمة الثّالثة في سلسلة سور آل حم السّبع، فقد سبقتها سورتا غافر وفصّلت، وتلتها سور الزّخرف والدّخان والجاثية والأحقاف. ويقال عن هذه الحروف المقطعة ما قيل عن مطلع سورتي غافر وفصّلت: (حمٓ) ومطلع سورة البقرة. ويجيء الانتصار للقرآن الكريم على الفور أثر الحروف المقّطعة، وفي أثناء السّورة الكريمة وفي نهايتها.

ويلحظ أنّ سورة الشّورى تبدأ بخمسة حروفٍ متقطعة، أمّا بقية سور آل حم فإنّها تبدأ بالحرفين : (حمٓ)

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾

كذلك يوحي إليك وإلى الّذين من قبلك: هكذا يوحي إليك يا محمّد وإلى الّذين من قبلك من أنبيائه[2] ومثل ذلك الإيماء يوحى إليك وأوحى إلى الّذين من قبلك[3].

هكذا يوحى إليك يا محمّد وإلي الّذين من قبلك من النّبيّين الله تعالى، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه. والمعروف أن لفظ الجلالة (الله) عظيم أسماء الله تعالى الواحد الأحد. وكلّ أسماء الله تعالى الحُسْنى وراء ذلك تمام التّسعة والتّسعين اسماً هي صفات لله تعالى الواحد الأحد.

---

[1] انظر مثلاً تفسير الطبري ٥/٢٥ و ٢٩ والإتقان ٤٣/١.

[2] تفسير الطبري ٥/٢٥.

[3] الجلالين .

ويلحظ في الآية الكريمة في القول ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ ثنائيّة الصّفات كما تلحظ هذه الثّنائيّة للصّفات في عَجُزِ عددٍ من آيات السّورة الكريمة. وهذه الظّاهرة معمّقةٌ لمعنى الآية الكريمة ومتناغمةٌ معها. إنّ الله تعالى الّذي يوحي إلى محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - هذا الكتاب العزيز هو العزيز في ملكه الّذي يغلب كلّ من ناوأه ويقهره، وهو الحكيم في كلّ شيء وفي إيحاء هذا الكتاب العزيز الّذي يتنظمه عقد الحكمة التي يتميّز بها العقلاء.

وليس بخافٍ أنّ السّورة الكريمة تبيّن في ختامها كيفيّات الوحي من الله تعالى للمصطَفَيْن من عباده وتقرّر أنّ القرآن الكريم الموحى به من ربّ العالمين. هو النّور المبين الّذي يهدي محمداً - صلّى الله عليه وسلّم - إلى صراط الله تعالى المستقيم. وإنّ الهداية من صفات العقلاء الحكماء أساساً.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾

الله تعالى العزيز الحكيم الّذي أوحى للمصطَفَيْنَ من عباده الكتب السّماويّة وسائر الوحي له ما في السّموات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وهو جلّ وعلا العليّ على خلقه علماً وقدرة، الأعظم من كلّ عظيم. ويلحظ أنّنا بصدد اسمين من أسماء الله تعالى الحسنى، وهما متناغمان مع صدر الآية الكريمة. وحينما تكون السّماء متقدّمةً في الذّكر على الأرض، وتكون صفة العليّ متقدّمةً على صفة العظيم، يصحّ أن يقال: إنّ صفة العليّ منبّهةٌ على صفة العظمة في الأرض، خاصّةً وأنّها احتاجت أربعة أيام من الأيّام السّتّة للخلق. وهكذا تتمشّى الصّفة المتقدّمة وتتناغم مع السّموات المتقدّمة في الذّكر، وتتمشّى الصّفة المتأخّرة وتتناغم مع الأرض المتأخّرة في الذّكر، وبذلك يتجلّى التّلاحم

المعنويّ في أوجه بين صدر الآية الكريمة وعجزها. إنّ الّذي أوحى القرآن الكريم وسائر الكتب السّماويّة هو الله تعالى خالق السّموات والأرض ومن فيهما وما فيهما ومدبّرهما.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ ﴾

تكاد السّموات يتفطّرن: يتشقّقن[1] ويتصدّعن من عظمة الله[2].

من فوقهن : من فوق الأرضين من عظمة الرّحمن وجلاله[3] أو تنشقّ كلّ واحدةٍ فوق الّتي تليها من عظمة الله تعالى [4].

ثمّة وجه شبهٍ بين الآية الكريمة وقول الحقّ جلّ وعلا في سورة غافر [5] : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

---

(1) تفسير الطبري ٦/٢٥ .

(2) تفسير الطبري ٦/٢٥ .

(3) تفسير الطبري ٦/٢٥ .

(4) الجلالين .

(5) الآيات ٧ – ٩ .

يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ ومن البين أنّ دعاء الملائكة للمؤمنين جاء في سورة غافر على التفصيل.

تقرّر الآية الكريمة أنّ السموات السبعّ تكاد تتفّطر كلّ واحدة فوق التي تليها وتتشقّق وتتصدّع من عظمة الله تعالى. والانفطار يكاد يحدث للسّموات كذلك وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال ساقطةً بسبب ادّعاء المشركين أنّ الله تعالى والد. ومِنْ هؤلاء المشركين كفّار مكّة، على نحو ما بينت سورة مريم المكّيّة الكريمة[1].

ويلحظ أنّ انفطار السّماوات يبدأ من الأعلى ويتّجه إلى الأدنى ويتمشى مع ذكر السّموات أوّلاً والأرض آخراً في الآية الكريمة السّابقة ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

وإذا كانت السّموات تكاد تتصدّع من عظمة الله تعالى وخشيته فإنّ الملائكة الأطهار تسبّح بحمد ربها جلّ وعلا آناء الليل وأطراف النهّار وفي كلّ الأوقات، لا تتعب ولا تملّ، و تستغفر لمن في الأرض من مؤمني البشر، وتسأل الحقّ جلّ وعلا أن تشملهم رحمته جلّ وعلا.

ألا إنّ الله تعالى هو الغفور لمن سأل الله تعالى بصدقٍ ودعاه بإخلاصٍ أن يغفر له ذنبه، الرّحيم بمن تاب إليه جلّ وعلا وأناب أن يعاقبه بعد التّوبة النّصوح.

وهكذا تطيع الملائكة الأطهار الله تعالى وتسبّح بحمده آناء اللّيل وأطراف النّهار في أقطار السّموات، وتستغفر للمؤمنين في الأرض، وتسأل الله تعالى الرّحمة لهم واللطف بهم. وبذلك يطيع المؤمنون الله تعالى ويفردونه بالعبادة كما تفعل الملائكة، وبذلك

---

[1] سورة مريم ٨٨ –٩٥.

يكون ثمّة انسجامٌ وتناغمٌ بين الملائكة والمؤمنين والكون كلّه في طاعة الله تعالى والتّسبيح بحمده.

أمّا النّغمة النّشاز في هذا الكون فإنها نغمة المشركين.

ويصحّ أن يكون المعنى: تكاد السّموات يتشقّقن من فوق الأرضين من عظمة الله تعالى. وتظل السّموات متقدّمةً في الذّكرى على الأرضين.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

والمشركين الّذين اتّخذوا من دون الله تعالى أولياء يوالونهم و يشركونهم مع الله تعالى في العبادة الله تعالى حفيظٌ عليهم وموكلٌ بهم ومحصٍ عليهم أعمالهم وسيعاقبهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً و يؤمنوا ويعملوا صالحاً. وما أنت أيّها الرّسول الكريم والنّبي العظيم عليهم بوكيلٍ ولا مسيطرٍ. إنّ عليك البلاغ وحده وعلى الله تعالى الحساب وإنّ على المشركين أن يعلموا جيداً أنّ الشّرك هو الذّنب الوحيد الّذي لا يغفره الله تعالى لمن مات مشركاً، فعلى المشركين أن يهتبلوا الفرصة ويتوبوا قبل فوات الأوان. أمّا طوق النّجاة وسفينة الأمان فالقرآن الكريم الّذي أوحاه الله تعالى إلى محمد بن عبد الله – صلّى الله عليه وسلّم – بلسانٍ عربيٍّ مبين، والّذي تبيّنه السنّة النّبويّة المطهرة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

أم اتّخذوا من دونه أولياء : بل اتّخذوا من دون الله تعالى أولياء [1].

وهكذا أوحينا إليك يا محمد قرآناً عربيًّا لتنذر بهذا الكتاب العزيز مكّةَ المكرّمة أمَّ القرى وسائرَ المدن من حول مكّة المكرّمة، والّتي تتّسع دوائرها تباعاً بحيث يصل إنذارك بهذا الكتاب العزيز حيث يبلغ الليل والنّهار، فإنّك يا محمد رحمةٌ للعاملين أجمعين. وكذلك لتنذر النّاس يوم القيامة الذي يجتمع فيه الأوّلون والآخرون، و الذّي لا ريب فيه ولا شكّ في وقوعه، والذي يثاب فيه المؤمنون ويعاقب فيه الكافرون. وفي يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود، النّاس فريقان، فريقٌ في الجنّة والنّعيم، وهم المؤمنون المتقون. وفريق في السّعير ونار جهنّم المشتعلة وهم الكافرون المعاندون.

ولو شاء الله تعالى لجعل النّاس أمّةً واحدةً على الهدى ولكنّهَ عزّ وجلّ لم يشأ ذلك، فلا حاجة بك يا محمّد إلى أن تقتل نفسك حزناً لإعراض قومك عن دعوتك، فإنّما عليك البلاغ وَحده، والله سبحانه وتعالى يُدْخل من يشاء في رحمته، ويوفّق للاهتداء إلى الصّراط من جاهد فيه عزّ وجلّ وأخلص النّيّة سبيل البحث عن الدّين الحقّ.

أمّا المشركون الظّالمون فليس لهم دون الله تعالى من وليٍّ يتولّى شؤونهم ويرعى مصالحهم، ولا نصير ينصرهم بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه.

بل اتّخذ كفّار مكّة ومن شاكلهم من دون الله تعالى أولياء يعبدونهم ويرجون عونهم ونصرهم. فالله تعالى هو الوليّ القادر على كلّ شيء، وهو يحيي الموتى يوم القيامة للحساب والجزاء، الثّواب أو العقاب، وهو جلّ وعلا على كلّ شيءٍ قدير، ومن ذلك إحياء الموتى.

إنّ الله سبحانه وتعالى العليم القدير هو المستحقّ أن يفرد بالعبادة وحده دون سواه.

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ /٢٨١.

وهكذا يكون في السّورة الكريمة عناية واضحة بيوم القيامة من أجل حثّ المشركين على الإيمان بذلك اليوم وعمل الصّالحات استعداداً له بعد أن يتوبوا وينيبوا ويؤمنوا.

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

يذرؤكم فيه : يخلكم فيما جعل لكم من أزواجكم، ويعيشكم فيما جعل لكم من الأنعام[1] ويذرؤكم في الجعل المذكور، أي يكثّركم بسببه بالتّوالد. والضّمير للأناسيّ، والأنعام بالتّغليب [2] له مقاليد السموات والأرض: له مفاتيح خزائن السموات والأرض[3] الواحد إقليد [4].

ويقدر: يضيّق الرّزق لمن يشاء ابتلاءً ويَقْتُر ويضيّق[5].

وما اختلفتم فيه أيّها النّاس من شيءٍ من أمور الدّين فحكمه إلى الله تعالى الّذي أرسل خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين بخاتم الأديان السّماويّة، دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، ذلكم الله تعالى الّذي له الخلق والأمر والحكم هو المستحقّ أن يُعْبَدَ وَحْدَه دون

---

[1] تفسير الطبري ٨/٢٥ .

[2] انظر الجلالين .

[3] تفسير الطبري ٩/٢٥ ومفردات الرّاغب الأصفهاني : "قلد" ٥٣٢/٢ .

[4] انظر تفسير ابن كثير ٢/٧ أو الهامش رقم ١ .

[5] انظر تفسير الطبري ١٠/٢٥ والجلالين .

سواه، ربيّ وربّ كلّ شيء. عليه توكّلت واعتمدت في كلّ أموري، وإليه أنيب وأرجع يوم القيامة الّذي لا ريب فيه.

الله تعالى فاطر السّموات والأرض وموجدهما على غير مثالٍ سابق. جعل لكم أيّها النّاس من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة، كما جعل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، من الضأن اثنين ومن المعز والإبل والبقر كذلك. ينشركم أيّها النّاس بسبب التّزاوج والتّكاثر. وهذه الزّوجيّة أو الثّنائيّة من ذكرٍ وأنثى قانون مطّرد في الكون كلّه، من أكبر الأجرام إلى أصغرها في هيئة الذّرّة، مروراً بالإنسان والحيوان والنّبات والجماد.

وليس ثمّة من واحدٍ أحدٍ فردٍ صمدٍ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد سوى الله تعالى، الّذي ليس كمثله شيء، وهو عزّ وجلّ السّميع، فلا يفوته صوت، البصير، فلا يغيب عن علمه شيء. إنّ الله سبحانه وتعالى ليس له مِثْل وشبه فيكون لذلك المثل والشّبه مثل وشبه، ومن باب الأحرى والأولى ألاّ يكون للذّات العليّة مثل ولا شَبَه.

وواضح أنّ القول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ نفي للتّشبيه، وأنّ القول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ نفي للتّعطيل. فالله تعالى ليس كمثله شيء، وهو جلّ وعلا السّميع البصير سمعاً وبصراً يليق به عزّ وجلّ من غير تكييفٍ ولا تعطيلٍ ولا تشبيهٍ ولا تمثيل[1].

ولله تعالى مفاتيح خزائن السموات والأرض، يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده اختباراً، أيشكر أم يكفر، أيصبر عن المعاصي وعلى الطّاعات والبلاء أم يفجر ويضعف

---

[1] انظر – هنا – مثلاً – الرّسالة التدمرية لابن تيمية ص ٨ الطبعة الثانية ١٣٩١هـ والجواب الصحيح لمن بدّل ربنا المسيح ٧/١.

ويجزع. ويضيّق الرّزق لمن يشاء من عباده ابتلاءً، أيصبر أم يجزع. إنّ بسط الرّزق ليس دليل الكرامة على الله تعالى، وإن ضيق الرّزق ليس دليل الهوان على الله تعالى. إنّ لله تعالى الحكمة البالغة والحجّة الدّامغة. وإنه جلّ وعلا بكلّ شيءٍ عليم. والله سبحانه وتعالى قد سبق علمه، وليس الزّمن جزءاً منه، إلا أنّ مِنْ عباده جلّ وعلا مَنْ يصلحه الغنى، ومَنْ يصلحه الفقر. والله تعالى يوسّع الرّزق اختباراً ويضيّقه ابتلاءً. ومعرفٌ أنّ الإيمان شطران، شطر شكر وشطر صبر. ومعروف كذلك أنّ كلاً من الغنيّ الشّاكر والفقير الصّابر في الجنّة بإذن الله تعالى.

وينبغي أن يكون للاسمين الكريمين في القول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ دورٌ بليغٌ في تأكيد الوحدانيّة في حقّ الذّات العليّة، وتأكيد الثّنائيّة في حقّ المخلوقات، تلك الثّنائيّة الّتي عُنِي صدر الآية الكريمة بإثباتها .

(٢)

"أرسل اللّه تعالى رسله بدين الإسلام، ويلزم إقامة الدين وعدم التفرق فيه، والويل للكافرين الصّادين عن سبيل اللّه تعالى"

الآيات (١٣-١٦)

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

شرع لكم من الدّين: إشارة إلى الأصول الّتي تتساوى فيها الملل فلا يصحّ عليها النّسخ كمعرفة الله تعالى ونحو ذلك[1].

أنّ أقيموا الدّين: أن أعملوا به على ما شرع لكم وفرض[2].

ولا تتفرقوا فيه: ولا تختلفوا في الدّين الّذي أمرتم بالقيام به كما اختلف الأحزاب من قبلكم[3].

كبر على المشركين ما تدعوهم إليه: عظم على المشركين[4] شهادة أن لا إله إلاّ الله فصادمها إبليس وجنوده[5].

شرع الله تعالى لكم أيّها النّاس من الدّين ما وصّى عزّ وجلّ به نوحاً عليه السّلام، أوّل رسل الله تعالى إلى البشر، والّذي أوحينا إليك يا محمّد، والّذي وصّينا به إبراهيم – عليه السّلام –أبا الأنبياء، وموسى عليه السّلام، كبير أنبياء بني إسرائيل، وعيسي عليه السّلام، آخر أنبياء بني إسرائيل، وهو أن أقيموا الدّين، واعملوا به على ما شرع لكم

---

[1] مفردات الراغب الأصفهاني : " شرع" ١/٣٤٠.

[2] تفسير الطّبري ١٠/٢٥ .

[3] تفسير الطّبري ١٠/٢٥.

[4] تفسير الجلالين.

[5] تفسير الطّبري ١١/٢٥ .

وفرض، ولا تتفرّقوا في الدّين وتختلفوا بشأنه. عظم على المشركين ما تدعوهم إليه يا محمّد من توحيد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله.

الله تعالى يجتبي إليه ويصطفي من يشاء، ويهدي إليه من ينيب ويرجع، يرشد لهدي التّوفيق من جاهد في سبيله عزّ وجلّ، وكان مخلصاً في البحث عن الحقيقة، حريصاً على ما يرضي الله تعالى.

وواضح أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن دين الإسلام الواحد الّذي بعث الله تعالى به جميع النّبيّين والمرسلين، ابتداءً بنوح عليه السّلام أوّل الرّسل، وانتهاءً بمحمّد -صلّى الله عليه وسلّم - خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، عليهم صلّوات الله تعالى وسلامه أجمعين، والآية الكريمة تذكر أولي العزم الخمسة من الرّسل. والمعروف أنّ الآية الكريمة السّابعة من سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة تتحدّث هي الأخرى عن عقيدة التّوحيد هذه وتذكر هؤلاء الخمسة من أولي العزم من الرّسل وذلك في قول الحّق جلّ وعلا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

وإذا كانت آية سورة الأحزاب الكريمة تبدأ بمحمّد - صلّى الله عليه وسلّم - دليلاً على أنه - صلّى الله عليه وسلّم - أشرف أولي العزم من الرّسل، فإنّ آية سورة الشّورى الكريمة تكاد تكون قد فعلت الشّيء ذاته. إن آية سورة الشّورى الكريمة تتحدّث عن الدّين الحقّ الّذي أرسل عزّ وجلّ به رسله متمثّلين في أولي العزم منهم. ولّما كان نوح عليه السّلام، أوّل المرسلين وأوّل أولي العزم منهم لذا لزم ذكر اسمه - عليه الصّلاة والسّلام - أوّلاً بالضّرورة، ثمّ كان الحديث عن بقيّة أولي العزم منهم، وهنا كان الابتداء بخاتمهم، محمّد بن عبد الله - صلّى الله عليه وسلّم - دليلاً آخر يضاف إلى

دليل آية سورة الأحزاب الكريمة بأنّ محمداً - صلّى الله عليه وسلّم - أشرف أولي العزم من الرّسل وقد رتبت الآية الكريمة تأريخيّاً كلاً من إبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميّعا صلوات الله تعالى وسلامه.

والآية الكريمة تبين دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به كلّ النّبيّين والمرسلين، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين، وتأمر بإقامة الدين والعضّ عليه بالنّواجذ، وتنهي عن الافتراق في الدّين والاختلاف بشأنه واتباع السّبل المتفرّقة المبتعدة عن سبيل الله تعالى، وتحثّ على الإقبال على الله تعالى كي يكون الاصطفاء من الله تعالى لأولئك المقبلين عليه جلّ وعلا، كما تحثّ على الرّجوع إلى الله تعالى بالنّيّة الصّادقة والعمل الصّالح كي تكون هداية التّوفيق من الله تعالى لأولئك المنيبين إليه جلّ وعلا.

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ ﴾

وإنّ الّذين أورثوا الكتاب من بعدهم: اليهود والنّصارى [1].

وما تفرّق أتباع النّبيين والمرسلين الّذين أرسلوا بدين التّوحيد إلاّ من بعد ما جاءهم العلم الصّحيح والحقّ الصّريح عن طريق أولئك المصطفين الأخيار، وإنّما كان الاختلاف بين الأتباع بباعث البغي بينهم، والأطماع الشّخصيّة، والأهواء الذّاتية وليس بباعث نقص الحجّة، وعدم وضوح المحجّة. ولا يكاد العجب ينتهي من كون كلّ حزبٍ من أصحاب الأهواء فرحاً بما لديه من علم، مطمئنّاً إلى ما لديه من اعتقاد، مع

---

[1] تفسير الطّبري ١١/٢٥.

أنّ الصّراطَ المستقيم الّذي هدي إليه النّبيّون والمرسلون أوضحُ من الشّمس في رابعة النّهار.

ولولا كلمة سبقت من ربّك يا محمّد ويا أيّها الإنسان بأنّ حساب القوم وجزاءهم في الآخرة وليس في الأولى وبعد انقضاء آجالهم لقضى الله تعالى بينهم في الحياة الدّنيا، وأهلك الكافرين ونصر المؤمنين.

واستمرّ حال الأمم بين اتباع النّبيّين والمرسلين والتّفرّق شيعاً وأحزاباً حتّى بعث الله تعالى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله - صلّى الله عليه وسلّم - بالرّسالة الخاتمة والحنيفيّة السّمحاء ودين الإسلام النّاسخ لكلّ دينٍ سواه، سماويّ، ومن باب الأحرى غير السّماويّ والعجيب في أمر اليهود اتباع موسى عليه السّلام، الّذي أوحى الله تعالى إليه التّوراة، وفي أمر النّصارى اتباع عيسى عليه السّلام، الّذي أوحى الله تعالى إليه الإنجيل، وهما الفريقان اللذان أورثهما الله تعالى الكتاب السّماويّ من بعد الأمم السّابقة، العجيب أنّ اليهود والنّصارى لفي شكٍ من القرآن الكريم إلى حدّ الارتياب أنّه من عند الله تعالى، والعجيب في كلٍّ من اليهود والنّصارى أنّ الشّكّ المريب هو موقفهم من القرآن الكريم الموحى به إلى محمّد بن عبد الله - صلّى الله عليه وسلّم - رغم أنّهم يجدون محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - مكتوباً عندهم بنعته في كلٍّ من التوراة الموحى بها إلى موسى عليه السّلام، والإنجيل الموحي به إلى عيسى عليه السّلام! وهكذا خان كلٌّ من اليهود والنّصارى الأمانة .

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾

لا حجّة بيننا وبينكم: الحجّة الدّلالة المبيِّنة للمحجَّة أي المَقْصِد المستقيم والّذي يقتضي صحّة أحد النّقيضين.

والمعنى هنا:لا احتجاج لظهور البيان [1].

الله يجمع بيننا: الله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضى بيننا بالحقّ فيما اختلفنا فيه[2]

وإليه المصير: وإليه المعد والمرجع بعد مماتنا[3].

تتألّف الآية الكريمة من عشر جزئيّاتٍ كريمات، تُبْنَى كلّ جزئيّة على سابقتها، بطريقةٍ تأسر القلب وتملك اللّبّ.

فلدِين الإسلام الّذي بعثك الله تعالى به واتباع سبيل الله تعالى وحده دون سواه فادْعُ يا محمّد. واستقم على المحجّة البيضاء كما أُمِرْتَ ومن تاب معك وأناب. ولا تتبع أهواء الّذين اتّبعوا السّبل المتفرّقة المبتعدة عن صراط الله تعالى المستقيم. وقل يا محمّد لأهل الكتاب الّذين هم في شكٍّ مريبٍ من القرآن الكريم آمنتُ بما أنزل الله تعالى من كتبٍ سماويّة مثل صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داوود، وإنجيل عيسى عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين.

---

[1] انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهاني :"حجّ" ١٤١/١ .

[2] تفسير الطبريّ ١٢/٢٥ .

[3] تفسير الطبّري ١٢/٢٥.

وفي مقدمّة ما آمنت به من كتب سماويّة القرآنُ الكريم المهيمن على الكتب السّماويّة السّابقة المصدق لما اتّفق منها معه. وأمرني الله تعالى لأعدل بينكم في الأحكام، فالله تعالى هو الّذي أنزل الكتاب بالحقّ وأنزل العدل والميزان. والله تعالى هو الّذي المستحقّ أن يفرد بالعبادة هو ربّنا وربّكم مربّي جميع خلقه ومنشئهم بنعمه وآلائه. لنا أعمالنا ونحن مسؤولون عنها ومحاسبون عليها، ولكم أعمالكم وأنتم مسؤولون عنها ومحاسبون عليها. لا حجّة بيننا وبينكم، لأنّ الصّراط المستقيم واضح، وليس بحاجة إلى مزيد حجّة ولا زيادة برهان. وأنتم يا أهل الكتاب تجدون نعت محمّد بن عبد الله - صلّى الله عليه وسلّم - مكتوباً عندكم في التّوراة و الإنجيل. وهذا القرآن الكريم المعجزة البيانيّة الكبرى أمام أعينكم. فهل ثمّة من حاجة إلى حجّة وبرهان وراء هذه الحجج والبراهين! الله تعالى يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة للفصل بيننا فيما اختلفنا فيه من أمور الدّين، وإلى الله تعالى مصيرنا ومردّنا يوم القيامة للحساب والجزاء، الثّواب في حقّ المؤمنين المتّقين، العقاب في حقّ الكافرين المعاندين.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾

والّذين يحاجّون في الله: الّذين يخاصمون في دين الله الّذي ابتعث به نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وسلّم [1].

من بعد ما استجيب له: من بعد ما استجاب له النّاس فدخلوا فيه من الّذين أورثوا الكتاب [2].

---

[1] تفسير الطّبري ١٢/٢٥.

[2] تفسير الطّبري ١٢/٢٥.

حجّتهم داحضة: باطلة ذاهبة عند ربّهم[1]، وهم اليهود والنّصارى[2] والّذين يخاصمون المؤمنين بالباطل ويجادلونهم في دين الله تعالى الّذي بعث به محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - من بعد ما استجيب له ودخل النّاس في دين الله تعالى أفواجاً ويحاجّونهم بقصد حملهم على الارتداد عن دين الله تعالى حجّتهم باطلةٌ عند الله تعالى وعلى هؤلاء الّذين يخدعون المؤمنين بباطلهم كي يرتدّوا عن دين الإسلام غضب من الله تعالى ولهم عذابٌ شديدٌ في الآخرة في نار جهنّم، والآية الكريمة تشمل كلّ الّذين يريدون من المسلمين أن يرتدّوا عن دين الإسلام، ويستوي في ذلك أهل الكتاب وسواهم.

---

[1] تفسير الطّبري ١٢/٢٥ .

[2] تفسير الطّبري ١٣/٢٥.

(٣)

"اللّه تعالى الّذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان، ويرزق عباده ويثيب المؤمنين يوم القيامة ويعاقب الكافرين هو المستحقّ أن يُعْبَدَ وَحْدَه"

الآيات (١٧-٢٨)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

الله الّذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان: الله الّذي أنزل هذا الكتاب، يعني القرآن، بالحقّ. وأنزل الميزان، وهو العدل، ليقضي بين النّاس بالإنصاف، ويحكم فيهم بحكم الله الّذي أمر به في كتابه[1].

ألا إنّ الّذين يمارون في السّاعة: ألا إنّ الّذين يخاصمون في قيام السّاعة ويجادلون فيه[2].

لفي ضلالٍ بعيد: لفي جَوْرٍ عن طريق الهدي، وزيغٍ عن سبيل الحقّ والرّشاد، بعيدٍ من الصّواب[3].

الله تعالى هو الّذي أنزل القرآن الكريم بالحقّ، فالقرآن الكريم مشتمل على الحقّ، والحقّ غايته، وأنزل الميزان ليقوم النّاس بالقسط ويمارسوا العدل في كلّ شؤونهم. وما يدريك يا محمّد، لعلّ قيام السّاعة قريب. وكلّ آتٍ قريب، ومَنْ مات قد قامت قيامته. يستعجل بالسّاعة الّذين لا يؤمنون بها ويستبطئون قيامها على سبيل الاستهزاء لأنّهم لا يؤمنون بها أصلاً. والّذين آمنوا مشفقون من قيام السّاعة ووجلون، ويعلمون أنّها الحقّ وأنّهم محاسبون يوم القيامة فمثابون أو معاقبون.

---

[1] تفسير الطّبري ١٣/٢٥.

[2] تفسير الطّبري ١٣/٢٥.

[3] تفسير الطّبري ١٣/٢٥.

ألا إنّ الّذين يمارون في قيام السّاعة ويجادلون بالباطل ويشكّون في قيامها وينكرون مجيئها ولا يستعدّون لها لفي ضلالٍ بعيد، وخروجٍ عن الصّراط المستقيم أكيد.

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، مؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم، يرزق كلّ عباده، فما من دابّةٍ إلاّ على الله تعالى رزقها. والله تعالى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويضيق الرّزق على من يشاء. لا رادّ لقضائه جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه. وهو عزّ وجلّ القويّ الغالب، العزيز القهّار سبحانه.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

الآية الكريمة ذات علاقة بقول الحقّ جلّ وعلا في سورة الإسراء[1] : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

تقرّر آية سورة الشّورى الكريمة أنّ من كان يريد بعمله الصّالح وجه ربّه الأعلى وثواب الآخرة فإنّ الحقّ جلّ وعلا سوف يزيد في ثواب عمله، ويضاعف له الأجر،

---

[1] الآيات ١٨-٢١ .

الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف فأكثر. أمّا من كان يريد بذلك العمل الجزاء العاجل في الدّنيا، مِنْ جاهٍ وذِكْرٍ حَسَنٍ وحُسْنٍ أُحدوثةٍ وما إلى ذلك من حظوظ الدّنيا فإنّ الحقّ جلّ وعلا سوف يعطيه في هذه الحياة الأولى ما كتبه الله تعالى له. وفي الآخرة ليس له نصيب من ثواب ولاحظّ من أجر، لأنّ العمل الصّالح قد شرط النّيّة الصّادقة وإخلاص العمل لله تعالى وحده دون سواه. إنّ صلاح العمل بمقياس الإسلام وإخلاص النّيّة لله تعالى شرطان ينبغي تحقّقهما معاً كي يتفضّل الحقّ جلّ وعلا بقبول ذلك العمل والإثابة عليه.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

أم لهم شركاء: أم لهؤلاء المشركين بالله شركاء في شركهم وضلالتهم[1].

شرعوا لهم من الدّين ما لم يأذن به الله: ابتدعوا لهم من الدّين ما لم يبح الله لهم ابتداعه[2].

---

[1] تفسير الطّبري ١٤/٢٥ .

[2] تفسير الطّبري ١٤/٢٥ .

ترى الظّالمين مشفقين ممّا كسبوا: ترى يا محمّد الكافرين بالله يوم القيامة وجلين خائفين من عقاب الله على ما كسبوا في الدّنيا من أعمالهم الخبيثة[1].

وهو واقع بهم: والجزاء عليها واقع بهم لا محالة[2].

في روضات الجنّات: الرّوضات جمع روضة، وهي المكان الّذي يكثر نبته[3] وإنّما عني جلّ ثناؤه بذلك الخبر عمّا هم فيه من السّرور والنّعيم[4].

قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى: عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه سئل عن قوله: {إلاّ المودّة في القربى} فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - فقال ابن عبّاس: عَجِلْتَ، إنّ النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - لم يكن بطن من قريش إلاّ كان له فيه قرابة. فقال: إلاّ أن تَصِلوا ما بيني وبينكم من القرابة[5]، وقد علّق ابن حجر في فتح الباري[6] على الحديث والآراء المختلفة في معناه بالقول: "والحاصل أنّ سعيد بن جبير ومن وافقه كعليّ بن الحسين والسُّدّي وعمرو بن شعيب فيما أخرجه الطّبريّ عنهم حملوا الآية على أمر المخاطبين بأن يوادّوا أقارب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وابن عبّاس حملها على أنّ يوادّوا النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - من أجل القرابة الّتي بينهم وبينه، فعلى الأوّل الخطاب عام لجميع المكلفين. وعلى الثّاني الخطاب خاص بقريش. ويؤيّد ذلك أنّ السّورة مكّية .

---

[3] تفسير الطّبري ١٤/٢٥ .

[4] الجلالين.

[3] تفسير الطّبري ١٤/٢٥.

[4] تفسير الطّبري ١٤/٢٥ .

[5] فتح الباري ٥٦٤/٨ حديث رقم ٤٨١٨.

[6] فتح الباري ٥٦٤/٨ .

أم أنّ المشركين المعرضين عن توحيد الله تعالى لهم شركاؤهم وسادتهم من شياطين الإنس والجنّ شرعوا لهم من الدّين وأبدعوا ما لم يأذن الله تعالى به ويأمر! إن كان الأمر لذلك فهم يستحقّون العذاب الشّديد والأخذ الأكيد.

ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك يا محمّد بتأخير العذاب إلى يوم القيامة يوم الفصل بين الخلائق لَحَكَمَ الله تعالى بين المؤمنين والكافرين وقضي للمؤمنين المتقين على الكافرين المبطلين. وإنّ المشركين لهم يوم القيامة عذابٌ أليم. ترى يا محمّد ويا أيّها المؤمن المشركين خائفين وجلين يوم القيامة ممّا كسبوا في الحياة الدّنيا من آثام. والعذاب واقع بهم والعقاب حال بهم. والّذين آمنوا بالله تعالى وعملوا الصّالحات في روضات الجنّات وخضرة البساتين، لهم ما يشاؤون عند ربّهم ويشتهون في جنّات النّعيم. ذلك النّعيم المقيم هو الفضل الكبير من الله تعالى والثّواب الجزيل. وذلك الفضل الكبير في الآخرة هو الّذي يبشّر الله تعالى في الدّنيا عباده الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات.

قل يا محمّد ردّاً على الّذين ظّنوا أنّك تريد مالاً، أو جاهاً مقابل دعوتك لهم إلى الله تعالى: لا أسألكم يا معشر قريش إلاّ أن تنظروا لي بعين الودّ لقرابتي فيكم، فإنّ لي نسباً في كلّ بطون قريش، وسبباً بكلّ بيوتاتها. إنّكُم إن لم تتّبعوني للنّبوّة، فلا أقلّ من أن ترعوا نسبي فيكم، وقرابتي منكم، وعلاقة الرّحم والدّم بكم، وأن تكفوني شروركم.

ومن يعمل حسنةً نجزل له أجرها ونضاعف له ثوابها.

إنّ الله سبحانه وتعالى غفور كلّ ذنبٍ بما في ذلك الشّرك إذا كان الاستغفار قبل الموت، فعلى المشركين أن يهتبلوا الفرصة قبل فوات الأوان. وإنّ الله تعالى شكور لمن عمل الحسنات ويضاعف له الأجر.

وبعد وفاة النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – يصحّ أن يكون القول ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ متوجهاً إلى جميع المؤمنين بأن تكون مودّتهم لأقارب النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – موصولةً لقربهم منه عليه الصّلاة والسّلام نسبًا.

وليس بخافٍ تناغم الصّفتين في القول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٞ ٢٣﴾ مع فحوى الآية الكريمة وتأكيدهما لمعناها.

وبشأن يوم القيامة الّذي كان المؤمنون مشفقين منه، ويعلمون أنّه حقّ ويعملون من أجله، والّذي كان الكافرون مستهزئين به مستعجلين مجيئه استخفافاً به وإنكاراً له قد تبادل كلّ من المؤمنين والكافرين المشاعر تجاهه. إنّ المؤمنين مطمئنّون فيه، وإنّ الكافرين مشفقون منه.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾

أم يقولون افترى على الله كذباً: بل يقولون افترى على الله كذباً[1] أم يقول هؤلاء المشركون بالله افترى محمّد على الله كذباً فجاء بهذا الّذي يتلوه علينا اختلافاً من قِبَل نفسه[2].

فإن يشأ الله يختم على قلبك: يطبع على قلبك[3] وأنساك ما قد أتاك[4] أي لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون لطبع على قلبك وسلبك ما قد آتاك من

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٩٥/١١.

[2] تفسير الطّبري ١٨/٢٥.

[3] تفسير الطّبري ١٨/٢٥ .

[4] تفسير الطّبري ١٨/٢٥ .

القرآن كقوله تعالى[1] : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي لانتقمنا منه أشدّ الانتقام، وما قدر أحدٌ من النّاس أن يحجز عنه[2].

ويمحو الله الباطل: الواو استئنافي. يمح: مضارع مرفوع وعلامة الرّفع الضّمّة المقدّرة على الواو المحذوفة مراعاة لحذفها لفظاً[3].

أم يقولون افترى محمّد على الله تعالى كذباً بزعمه أن القرآن موحى به من الله تعالى وليس كلاماً من عند ذاته وبنات أفكاره.

ولو أنّك يا محمّد افتريت شيئاً من القرآن أو بدّلته من عند نفسك، وهذا على سبيل الافتراض، فإن يشأ الله تعالى يَطبَعْ على قلبك ويمحُ القرآن من صدرك. وأنت يا محمّد بريءٌ من هذه التّهمة، والحقّ جلّ وعلا هو الّذي أوحى إليك القرآن الكريم، والحقّ جلّ وعلا يمحو الباطل والكذب، ويحقّ الحقّ ويثبّته بكلماته التّامات، وحكمه البليغات. إنّه جلّ وعلا عليمٌ بذات الصّدور ودخائل النّفوس، ويشهد أنّ القرآن الكريم كلامه الموحى به إليك، وأنّ المشركين يفترون على النبي - صلّى الله عليه وسلّم - الكذب.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

---

[1] سورة الحاقّة ٤٤-٤٧ .

[2] تفسير ابن كثير ١٩١/٧ .

[3] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٩٦/١١، وانظر تفسير الطّبري ١٨/٢٥ .

والله تعالى هو الّذي يقبل التّوبة في المستقبل، ويعفو عن السّيّئات في الماضي[1] ويعلم ما تفعلون أيّها النّاس من خيرٍ أو شرّ وسيحاسبكم ويجازيكم يوم القيامة.

ويستجيب الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لربّهم جلّ وعلا بفعل الأوامر واجتناب النّواهي فيوفّيهم الله تعالى أجورهم ويزيدهم من فضله. والكافرون لهم عذاب شديد يوم القيامة.

وليس بخافٍ البلاغة بالحذف في القول: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ وبشأن البلاغة بالحذف يصحّ بشأن القول ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أن نستأنس بما جاء في نعت الّذين آمنوا في الآية الكريمة الثّامنة والثّلاثين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ وبما جاء في الآية الكريمة السّابعة والأربعين من أمرٍ للكافرين بالاستجابة لربّهم. قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وإنّ العطف في القول: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ﴾ يومئ إلى أن ثمّة كلاماً محذوفاً يصحّ أن يكون الكلام الّذي ذكرنا أو نحوه.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى الّذي يرزق الخلق وتكفّل لكلّ دابةٍ في الأرض برزقها لو بسط الرّزق لعباده لبغوا في الأرض وتجاوزوا ما أحل الله تعالى إلى ما حرّم، وتخطّوا حدوده، واعتدوا على الحرمات. ولكنّ الله تعالى يترّل من الرّزق ما يشاء بقَدَر، ويعطي كميّة

---

[1] تفسير ابن كثير ١٩٣/٧.

منه محدّدة. ومع هذا التّقدير في الرّزق فما أكثر الّذين أطغاهم المال والجاه، فدلّ ذلك على أنّ ضيق الرّزق دواء للنّفوس المستعدّة لأن تطغى وتبغي. إنّ خزائن الله تعالى لا تنفد. وإنّ الدّنيا لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضةٍ و إلا ما سقي الكافر شَرْبة ماء، وإنّ الحقّ قد يبسط الرّزق لمن لا يحبّ ولا يكرم استدرجاً وابتلاءً.

إنّ الله سبحانه وتعالى بعباده خبيرٌ ببواطنهم، بصيرٌ بظواهرهم وبأعمالهم، فلا يخفى على الله تعالى شيء في الأرض ولا في السّماء، من سر أو علانية.

ولا يخفى دور ثنائيّة المعنى في القول: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ في تعميق معنى الآية الكريمة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

إنّ من الرّزق الّذي يترله الله تعالى من السّماء الغيث. والله سبحانه وتعالى يترل الماء من السّماء بقَدَر كيلا يهلك الماء الحرث والنّسل من ناحية، وكيلا يطغى النّاس. وإنّ الله تعالى هو الّذي يترل الغيث من بعد ما قنط النّاس ويئسوا من رحمة الله تعالى، وهو الّذي ينشر رحمته بالمطر ويحيي الأرض من بعد موتها بالماء. والله سبحانه وتعالى هو الّذي يتولّى مصالح عباده ويرعاها، ويتولّى الصّالحين، ومولى المؤمنين. والله سبحانه وتعالى هو المحمود على كلّ حال.

ولا يخفى دور ثنائيّة المعنى في القول: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ في تعميق معنى الآية الكريمة.

(٤)

"آيات اللّه تعالى الدّالّة على قدرته خلقُ السّموات والأرض والسّفن الّتي تجري في البحر، وابتغوا أيّها المؤمنون ما عند اللّه تعالى واتصفوا بمجموعةٍ من النّعوت"

الآيات (٢٩-٤٣)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

ومن آيات الله تعالى الدالّة على قدرته المطلقة عزّ وجلّ منها البعث بعد الموت والنّشوى والحساب والجزاء يوم القيامة خلق الله تعالى السّموات والأرض وما نشر وفرّق فيها من دابّة كالملائكة والجنّ والأنس. وهو عزّ وجلّ على جمعهم يوم القيامة إذا يشاء قدير، فلا يعجزه جلّ وعلا شيء في الأرض ولا في السّماء.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾

وما أصابكم أيّها النّاس من مصيبةٍ في أنفسكم أو أهليكم وأموالكم فبما كسبت أيديكم من ذنوب، واقترفتم من آثام. ويعفو الله سبحانه وتعالى عن كثيرٍ من الذّنوب فلا يعجّل العقوبة بشأنها فبادروا إلى الاستغفار والتّوبة أيّها النّاس قبل فوات الأوان.

وما أنتم بمعجزي الله تعالى في الأرض الّتي تحبون عليها أيّها النّاس، وما أنتم بفائتيه إذا أراد أن يصيبكم بسوء. وما لكم من دون الله تعالى من وليّ يدافع عنكم ويرعى مصالحكم، ولا نصيرٍ ينصركم بصرف الأذى عنكم أو تخفيفه.

وقد نُسبت الأعمال إلى الأيدي؛ لأنّ أكثرها يمارس بالأيدي. وجاء النّصّ على الأرض في القول: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ لأنّ المعنّيين بالخطاب في المقام الأوّل البشر. وهم يسكنون الأرض.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

ومن آياته الجوار: الجواري جمع جارية، وهي السّائرة في البحر[1].

كالأعلام: كالجبال واحدها علم. ومنه قول الشّاعر (الخنساء) كأنّه عَلَمٌ في رأسه نار[2].

رواكد: وقوفاً[3] لا تجري[4].

لكلّ صبّار: في الشدائد[5].

شكور: في الرّخاء[6].

أو يوبقهنّ بما كسبوا: أو يهلكهنّ بالغرق[7] بذنوب أهلها[8].

ويعف عن كثير: ويصفح تعالى ذكره عن كثيرٍ من ذنوبكم فلا يعاقب عليها[9].

---

[1] تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
[2] تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
[3] تفسير الطّبري ٢٢\٢٥.
[4] تفسير الطّبري ٢٢\٢٥.
[5] تفسير ابن كثير ١٩٦\٧.
[6] تفسير ابن كثير ١٩٦\٧.
[7] تفسير الطّبري ٢٢\٢٥.
[8] تفسير الطّبري ٢٢\٢٥.
[9] تفسير الطّبري ٢٢\٢٥.

ويعلم الّذين يجادلون في آياتنا: الواو عاطفة. يعلم: مضارع منصوب معطوف على محذوف منصوب للتّعليل، أي يعرفهم لينتقم منهم ويعلم[1].

ما لهم من محيص: ما لهم من محيد من عقاب الله إذا عاقبهم على ذنوبهم وكفرهم به ولا لهم منه ملجأ[2] ولا مهرب[3].

ومن آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة عزّ وجلّ السّفن الّتي تجري في البحر كالجبال ضخامةً وعلوّا. يحدث هذا بإذن الله تعالى ومشيئته. وهذا الماء ذاته بإذن الله تعالى ومشيئته لا يستطيع أن يحتفظ على ظهره بأصغر حصاة، بل ينبغي أن تغوص في أعماقه. وهذه السّفن الضّخام إن يشأ الحقّ جلّ وعلا يسكن الرّيح الّتي تسيّر السّفن فيظللن قياماً على ظهر الماء لا يتحرّكن. إنّ في كلّ ذلك لآياتٍ دالاّتٍ على القدرة المطلقة للذّات العليّة، لكلّ صبّارٍ على طاعة الله تعالى والبلاء وعن المعاصي، شكورٍ لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة. وكل من الصبور والشّكور في الجنة بإذن الله تعالى. أو يوبق الله تعالى السّفن بالرّيح العاتية الّتي تطوّح بتلك السّفن الضّخمة في كلّ اتّجاه حتّى تغرق بمن فيها وما عليها بسبب ما كسب الرّكاب من سيّئات واقترفوا من آثام. ويعفو الله تعالى عن كثيرٍ من الذّنوب ولا يؤاخذ عليها ويلطف براكبي السّفن فلا تغرق السّفن، رغم تعرّضها، بإذن الله تعالى، لصنوف الرّياح العاتية، والعواصف الهوج.

إنّ الله سبحانه وتعالى يُغْرق السّفن ويهلك ركّابها الآثمين، لينتقم منهم ويعلم الّذين يجادلون في آياتنا بالباطل ما لهم من مهربٍ من عذاب الله تعالى إذا عاقبهم على ذنوبهم وكفرهم به عزّ وجلّ.

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٠٢ والجلالين.

[2] تفسير الطبري ٢٢/٢٥ .

[3] الجلالين.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

والفواحش: الفواحش جمع الفاحشة، وهي القبيح الشّنيع من قولٍ أو فعل[1].

ما عليهم من سبيل: مؤاخذة[2].

فما أوتيتم أيّها النّاس من شيءٍ فمتاع الحياة الدّنيا الزّائل، مهما يكن ثمنه غالياً، ونفعه عاليا. وما عند الله تعالى من ثواب جزيل، ونعيمٍ مقيم، خير من متاع الدّنيا الزّائل، وأبقى من الحياة الدّنيا الفانية، للمؤمنين الّذين يتّسمون بمجموعةٍ من النّعوت. فعليكم أيّها المؤمنون أن تريدوا بأعمالكم الصّالحة وجه ربّكم الأعلى، وان تتّسموا بهذه النّعوت.

إنّ الّذين آمنوا هم الّذين يؤمنون بالله تعالى ربًّا. وبالإسلام ديناً، وبمحمّدٍ - صلّى الله عليه وسلّم- نبيًّا ورسولاً، وبالقرآن الكريم منهجا، وعلى ربّهم جلّ وعلا وَحْدَه دون سواه يتوكّلون ويعتمدون، وفيه يتقون، وإليه يطمئنّون. وهم الّذين يجتنبون تماماً

---

(1) انظر المعجم الوسيط: " فحش " ومفردات الرّاغب الأصفهاني: " فحش " ٤٨٣/١ .

(2) الجلالين .

كبائر الإثم والذّنوب، ويتحاشون إتيان الفواحش، وما فحش قبحه من الأقوال والأفعال، وإذا ما أثير غضبهم بسبب السَّفه عليهم، ومحاولة بعض الحمقى النّيل منهم، وهم يصبرون على الأذى، ويكظمون الغيظ، ويأتون من الأقوال والأفعال ما تسلم به أعراضهم، ولا تتأذّى به مروءتهم، ويدلّ على حلمهم. وربّما أحسنوا إلى من أساء إليهم، فإذا الّذي بينهم وبينه عداوة كأنّه وليٌّ حميم، وصديقٌ صَدوق. وهم الّذين استجابوا لربّهم عزّ وجلّ الّذي دعاهم إلى توحيده وإفراده بالعبادة وفعل الطاعات واجتناب المعصيات، وأقاموا الصّلاة أعظم العبادات بشروطها الكاملة، وأَمْرُهُم الّذي يستجدّ شورى بينهم، فلا أحد ينفرد برأيه ويستبدّ، وممّا رزقهم الله تعالى ينفقون على من تلزمهم نفقته، ويزكّون، ويتصدّقون. وهم الّذين إذا أصابهم بغي المعتدي عليهم ينتصرون لأنفسهم بالحقّ، فليس خفض جناحهم للمؤمنين ولين جانبهم ورقّة مشاعرهم مبعثها الضّعف والإحساس بالذلّ، ولكنّ مبعثها حبّ المؤمن لأخيه المؤمن، وعطفه عليه، والعزّة على الكافرين. فإذا عزم الأمر وجدّ الجدّ فإنّ المؤمن، هو الأسد الهصور والفارس المُعْلَم.

وواضح أنّنا بشأن الّذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون أمام فريقٍ من النّاس فطرهم الله تعالى على حبّ أخذ حقّهم ممّن تجاوز الحدود في حقهم. وهذا الفريق غير الفريق الأوّل الّذي فطره الله على الاستعداد لأن يروّض نفسه على كظم الغيظ، والعفو عن الآخرين، وربّما بلغ مرتبة الإحسان فدفع السّيّئة بالحسنة.

وهذا الفريق الّذي إذا أصابه البغي ينتصر لنفسه، وهو حقّ مشروع له، يرشده السّباق إلى أن يكون الانتصار لنفسه بمقدار الاعتداء عليه، فجزاء السّيّئة سيّئة مثلها، لا أكثر منها سُوءًا وحجما. ويلحظ أنّنا في القول: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ أمام ما يسمىّ في البلاغة بالمشاكلة، ومراعاة النّظر والازدواج، وذلك باستعمال لفظٍ واحدٍ

لأداء معنيين مختلفين، ليكون أخفّ على اللّسان. إنّ السّيّئة الأولى على الحقيقة لأنّها قادمة من المعتدي الباغي، وهي في الأخرى بمعنى الجزاء والقصاص والعقوبة وما إلى ذلك. وليس ذلك من السّيّئة في شيء. ومِنْ أجل الخفّة على اللّسان نطقاً، والثّقة في قدرة السّامع على إدراك المعنى المطلوب، يكون اللّجوء إلى هذا الأسلوب البلاغيّ.

وعلى الرّغم من إذن الشّارع الحكيم للمعتدي عليه. بمعاملة المعتدي بالمثل، بدليل استخدام السّيّئة بمعنى الجزاء بقصد مجاراة انفعال المعتدى عليه ومن ثمّ امتصاص حماسته، يرشده السّياق إلى الخصلة الّتي هي أحسن. إنّها العفو عن المعتدى بمعنى ترك مؤاخذته على ذنبه، ثمّ إصلاح ما فسد بينه وبين المعتدى الباغي. إنّ أجر من يفعل ذلك على الله تعالى القادر وَحْدَه على الأجر، بغير حساب. وذلك دليل علي ضخامة الأجر. وفي التّذييل: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وضع حدٍ لكلا الطّرفين. إنّ الله تعالى لا يحبّ المعتدى الظّالم ابتداءً، كما لا يحبّ اعتداء من انتصر لنفسه بعد ظلم، فتورّط في ظلمٍ أَشَدَّ وبغي أشنع.

وكما ردع السياق ونهى المعتدى عليه عن التّورّط في الّظلم، ردع السّياق ونهي المعتدي عن التّورّط في ظلم من دافع عن نفسه بالمثل، فبيّن أنّ من دافع نفسه ودفع عن نفسه الّظلم بالمثل ليس عليه مؤاخذة، إنّما المؤاخذة على الّذين يظلمون النّاس ابتداءً، ويبغون في الأرض بغير الحقّ انتهاءً، وذلك بالبغي مثلاً على الّذي دفع بالْمِثل ظُلْمَهُمْ له ابتداءً. إنّ لأولئك الظّالمين الباغين عذاباً أليماً عند الله تعالى.

ويبيّن السّياق أخيراً أنّ الصّبر على الأذى، وترك المؤاخذة على الذّنب لمن الأمور الّتي عزم عليها الشّارع الحكيم وأمر بها، حث عليها ونصح بها. وليس بخاف أنّ نعوت المؤمنين في الآيات الكريمات تشمل جوانب العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والسّلوك،

والمعاملة. القرآن الكريم يهدي دائماً وأبداً إلى الطّريقة الّتي هي أقوم، والخصلة الّتي هي أجمل، والوسيلة الّتي هي أحسن.